ISSN 2170-0796

الوضع الثقافي في الجزائر خلال القرن 19م
في سياق السياسة الاستعمارية الفرنسية

عبد الرحمان بلاّغ أستاذ بجامعة بشار

إن حديثنا عن الوضع الثقافي في الجزائر، خلال سبعين سنة من الاحتلال، لا يعدو أن يكون في مجمله محاولات عصيبة لأفراد تشبه الكر والفر، فالأمة حينها لم تكن محددة في أرضها فحسب، بل في ذاتيتها أيضا، لذلك نجد فعاليات الثقافة الوطنية خلال هذه الفترة متواجدة حيث لم تصل معاول الاستدمار، وفي بعض الأحيان نجدها متنقلة بتنقل الزمالة، مما يبرز مدى تشبث الجزائري بثقافته، حتى لو أرغم قصرا على التنازل عن أرضه، فهو لا يتنازل عن*الكتّاب*، و *الجامع*.

والمتصفح لكتابات التاريخية التي تناولت الفترة، يخرج بمشهد واحد هو المقاومة المسلحة للاستعمار، وسياسة المواجهة التي تبنتها فرسا، بينما الحديث عن الرصيد الثقافي لهذه الفترة فقليل.

الاستعمار وتجفيف المنابع:

لقد طبقت الإدارة الاستعمارية سياسة تجفيف منابع الموارد المالية، التي كانت ترد على المراكز الثقافية، بسبب سياسة "الأرض المحروقة" التي تبناها الاستعمار، والتهجير القصري للقبائل الجزائرية من موطنها، مثل قسنطينة وتلمسان بعد 1837م ، وكلا المدينتين كانتا على جانب طيب من النشاط العلمي والثقافي، إذ يقر الجنرال دوماس في تقريره (إن المدارس الشهيرة والزوايا كانت متوفرة، ثم اختفت نتيجة الاحتلال والإهمال ومصادرة الأوقاف، وهجرة العلماء)

ويتصل بذلك عملية النفي والتهجير التي قام بها الجنرال بوجو للعلماء والقضاة، من طينة العالم حسين بن عزوز 1841 والمفتي مصطفى الكبابطي، الذي نفي إلى جزيرة سان مرغريت عام 1843، كما طرد حمودة الفكون وأخيه 1841 من قسنطينة إلى الإسكندرية، وفي نفس الوقت انتهت حياة بوضربة في المغرب، وحياة حمدان بن عثمان خوجة في اسطنبول خلال الأربعينيات، والتحق من تبقى من العلماء والطلبة بالمقاومة. هذه الوضعية شكلت حرجا للسلطات الاستعمارية بعد مرور عشرين سنة عن الاحتلال في التعامل مع المجتمع الجزائري، إذ لم تجد من توظفه في القضاء، أما عن الأدب والثقافة والفن فلا حديث.

لم تكن مدينة الجزائر بمعزل عن هذه الوضعية، فلم يبق فيها سنة 1846 سوى 14(مسيد) يتردد عليها بين 320 و400 تلميذ، وزاوية واحدة، بعدما كان بها سنة 1830 حوالي 100(مسيد) و 10زوايا. وفي قسنطينة يقول "بيدو" :"أنه بعد عشر سنوات من احتلال قسنطينة (1837-1847) كاد يختفي التعليم في هذه المدينة، لأن هدف فرسا من وراء ذلك إحباط "الأهالي" ثقافيا وماديا، كما جاء في تقرير رفعه أحد منظري الاستعمار إلى نابوليون الثالث، بينما ترى الأستاذة" أيفين تورين" أن أهداف الاستعمار تتمثل في (تحويل المجتمع الجزائري تحويلا كليا يجعله يخدم مصالح المستعمر ورأت أن التعليم هو أحسن وسيلة لإزالة " الأفكار المتخلفة" المتفشية بين الأهالي، بالقضاء على ثقافة الجزائريين ولغتهم وشخصيتهم مما يمكن فرسا المحتلة من السيطرة على الوضع).

وفي إطار تصفحنا لتاريخ المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار من 1830 إلى 1900، لا نكاد نجد حركة مقاومة دون أن يكون وراءها مرابط أو شريف، وهم إلى جانب هذا الدور التاريخي- بالأخص من بداية الاحتلال إلى نهاية عهد الخمسينيات في الشمال، و يمتد إلى نهاية القرن في الجنوب- نجدهم يقومون بدور ثقافي واجتماعي من أجل الحفاظ على هوية الأمة.

الجزائر تتحدى المسخ الاستعماري

على الرغم من التضييق الاستعماري على الزوايا والمدارس العربية، بالقوانين تارة ولغويا منذ الستينات تارة أخرى ، إلا أن العربية استطاعت أن تحافظ على وجودها، من خلال نشاط التعليم في المدارس القرآنية والوعظ والإرشاد في المساجد، كما تم إنشاء زوايا

ISSN 2170-0796

جديدة، منها زاوية الهامل التي أسسها مُحَمَّد بن بلقاسم 1849 قرب بوسعادة، وفتحت زاوية نفطه التونسية أبوابها للجزائريين، وظلت زاوية زواوة مستمرة في أداء رسالتها التثقيفية إلى ثورة 1871، وكل هذه الزوايا ترجع في أصولها للطريقة الرحمانية، عدا زاوية قصر البخاري التي كانت شاذلية.

وفي الغرب الجزائري تراجع الدور الثقافي لزاوية القيطنة ومدرسة مازونة وزاوية أولاد سيد الشيخ بالبيض، نظرا لطول فترة المقاومة التي قادها كل من الأمير عبد القادر وأولاد سيد الشيخ ثم بوعما. و مع نهاية ثورة المقراني 1871م، خبت جذوة المقاومة المسلحة في الشمال، وسيطر الاستعمار على المدن وطمس كل أشكال الثقافة الوطنية هناك، وعمل على غرس ثقافة دخيلة، تثبط العزائم وتنفخ الخذلان والاستسلام في أواصر الشعب الجزائري، وقد لخص الشيخ أبو يعلى الزواوي ذلك في قوله: (بعد ثورة1871 تم الاستيلاء على جميع الوطن جبرا وقهرا... تم إن الطامة الكبرى أن قد صار المعلمون في تلك المدارس الفرسية ينهون عن تعلم العربية لأنها تتعب الأولاد وتشوشهم وتكلفهم ما لا يطيقون، وأن لا بد من الاقتصار على الفرسية ، وأن من خالف هذا أو قاوم أو نازع يعاقب بالأنديجينا، فأعدمت العربية) ، ومنذ ذلك الحين تقهقرت مكانة اللغة العربية، ونقص عدد معلمي القرآن، وترست السلطات الاستعمارية هذا التوجيه سنة 1892 بإصدارها قانون يقضي بأن لا تفتح مدرسة في الجزائر إلا برخصة من الحكومة الفرسية.

على إثر هذه الممارسات الاستعمارية، وانتشار الجهل والعزلة، بدأت تظهر أفكار جديدة تعطي الشرعية للاستعمار كقولهم: (الاستعمار قضاء وقدر)، وأن الخلاص منه لم يعد بالسلاح ولا بالتعليم، ولكن ببركة الشيخ الصوفي المرابط، وكان لمثل هذه الأفكار تأثيرها على الشعب الجزائري، وأن كل الصواب فيما يقوله الشيخ الصوفي، فاستغلها الاستعمار للإبقاء على الجماهير ساكنة مسالمة، حيث قال قائد عسكري فرسي:(إن كسب شيخ طريقة أنفع من تجهيز جيش كامل.... ولما اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال والجيوش لما أفادتنا ما تفيده تلك الكلمة الواحدة من الشيخ، على أن الخضوع لقواتنا لا تؤمن عواقبه لأنه ليس من القلب، أما كلمة الشيخ فإنها تجلب لنا القلوب والأبدان والأموال أيضا)، وإن أكد القائد الفرسي أن الجزائريين واقعين تحت تأثير الشيوخ والمرابطين، فإنه يقر ضمنيا برفضهم للوجود الاستعماري، كما يعكس هذا القول الصورة الثقافية لواقع المجتمع الجزائري في نهاية القرن 19م، الذي ثار ضده بعض العلماء العاملين، أمثال صالح بن مهنا القسنطيني(1840-1910)، الذي قال في إحدى خُطبه: (وليس العالم الذي يحفظ كلمات من الجراب، ولسانه عامر وقلبه خراب، قد ملأ صحيفته ذنوبا وأوزارا، مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، كمثال الحمار يحمل أسفاراً .... وأعلموا أن العلماء العاملين هم ورثة الأنبياء والمرسلين، وأن علماء السوء هم خلفاء إبليس وورثة الشياطين).

وأمام التردي الثقافي الذي فرضه الاستعمار وعملاؤه، أصبح بعض المرابطين يأملون في الحصول على الجنسية الفرسية على خلفية "قانون كريمو" 1871م، الذي منح الجنسية الفرسية لليهود، وأشار إلى ذلك الكاتب "لوي رين" (... و لكن البعض وهم المرابطون رؤساء الزوايا رأوا في ذلك – منح اليهود الجنسية الفرسية- دليلا على تسامحنا الديني...و كانوا يظنون بدون شك أننا يوما ما سنتصرف مثل هذا التصرف بالنسبة للقانون الديني للمسلمين).

وفي مقابل من هذا النموذج الثقافي الخاضع لتأثير الاستعمار، نجد مظاهر ثقافية مخالفة لهذا التصور يقوده علماء عاملين، أمثال حمدان بن عثمان خوجة(ت1840م) ، وأحمد بن العطار القسنطيني(1790-1870)، والأمير عبد القادر الجزائري(1807-1883م)، وطالب الإغريسي (1836-1891م)، وصالح بن مهنا القسنطيني (1840-1910)، الشيخ مُحَمَّد أطفيش المزابي(ت 1914)، مُحَمَّد بن الخوجة الجزائري(1865-1915)، والدكتور مُحَمَّد بن ابي شنب اللمدي(1869-1929).

فقد قام هؤلاء بتأليف مصنفات ذات أهمية تاريخية، مثل "المرآة" لحمدان بن عثمان خوجة، الذي يرافع فيه عن الجزائر ويبرز فيه مسؤوليته كمثقف جزائري يحمل قضايا وطنه إلى الرأي العام الفرسي والدولي (إن كل ما وقع في الجزائر منذ ثلاث سنوات يفرض علي واجبا مقدسا يتمثل في التعريف بالوضع الحقيقي لهذا البلد قبل الغزو وبعده، لألفت انتباه رجال الدولة إلى هذا الجزء من العالم،

ISSN 2170-0796

ولأقدم لهم ما لدي من المعلومات ونورهم حول بعض النقاط التي لا شك أنهم يجهلونها، أفعل ذلك، لعلهم يبدون عطفهم على الجزائريين عندما يرون أوضاعهم)، وله مؤلفات في مجالات متعددة في الطب "إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء"، "حكمة المعارف" و"ستار الإتحاف"، أما ابن العطار القسنطيني، ألف كتب عدة من جملتها " تاريخ حاضرة قسنطينة"، والأمير عبد القادر رغم الواجب الجهادي الذي كان يقوم به، فإنه أثرى الحياة الثقافية في الجزائر بمؤلفات، كتدوين مذكّراته التي طبعت بعنوان(مذكّرات الأمير عبد القادر) وله شعر راق، جمع في ديوان عنوانه: (نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر) الذي يقول فيه:

ما في البداوة من عيب تدم به * إلا المروءة و الإحسان بالبذر

وصحة الجسم فيها غير خافية * والعيب والداء محصور على الحضر

من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى * فنحن أطول خلق الله في العمر

وله رسائل نثرية منها(ذكرى العاقل و تنبيه الغافل) و(المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل و الإلحاد) ، و قد ألف الشيخ محمد أطفيش الميزابي، كتبا كثيرة في التفسير وأصول الفقه وفي الحديث والسيرة وفي التوحيد والتاريخ والطب، والأدب مثل شرح "شواهد القزويني".

رغم التراجع الذي عرفته الحركة الثقافية في الجزائر غداة الاحتلال الفرسي، إلا أنها استمرت في أشكال متعددة تعمل على الرصيد الثقافي المتبقي للشعب الجزائري، وإصرار علماؤه على مواجهة الثقافة الدخيلة ببعث الثقافة الوطنية، ومن ذلك نجد للشيخ عبد القادر المجاوي، الذي اعتبره صاحب كتاب "إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر" أنه أول المصلحين ومبتكر الحركة الإصلاحية في قسنطينة ثم في الجزائر، ومن مؤلفاته "إرشاد المتعلمين" و"اللمع في نظم البدع" و"نصيحة المريدين" و"كتاب الاقتصاد السياسي"، ويقول في مجال إثراء الحياة الثقافية والعلمية في الجزائر (إن التعليم القديم غير نافع في زماننا لنقصانه, إذ تعليم القرآن وحده على الكيفية المألوفة عندنا...لا يفيد...فلا بد من معرفة العلوم النافعة في الدين والدنيا) ويقول في التربية:(وما كثر الفساد في أمة إلا بعدم تربية الأولاد...و أننا نرى الأمم الحية حصل لها الرقي بتربية أولادهم وتعليمهم العلوم النافعة) ، وفي ذلك انعكاس للحياة الثقافية والاجتماعية في الجزائر، لأن الكاتب يرصد ما يراه أو ما يتداول في مجتمعه، يدعمه إن كان نافعا ويعالجه إن كان سلبيا.

أما صالح بن مهنا القسنطيني، صاحب كتاب " على هامش الرحلة الورتلانية" يخاطب القضاة بقوله:(...و أعلموا أن أهل العدل على منابر من نور وأهل الجور تغل أيديهم إلى أعناقهم...)، والتجار بقوله: (يا معشر التجار لا تكونوا من التجار الفجار). كما تناول محمد بن مصطفى بن الخوجة سنة 1897 موضوع المرأة في كتابه "الاكتراث في حقوق الإناث"، والهادي السنوسي قصيدة بعنوان: المرأة الجزائرية، جاء فيها:

بنت نمت إلى العروبة نسبة***حسناء تخجل في الجمال الفيدا

ناشدتكم بالله و الرحم في أمية***ملأت رؤوس الناشئات حمودا

إلى جانب هذه المؤلفات، كان الشعر الشعبي يعالج المشاكل الاجتماعية ويدعو للمقاومة، وأصبح المداحون يتظاهرون بمدح النبي(ص)، وكان أدبهم الشعبي صرخة مزعجة في وجه الاستعمار، وبذلك فالثقافة الجماهيرية كانت آخر ملجأ لإنقاذ ما تبقى من قيم الأمة وآخر مرحلة من مراحل المقاومة المستميتة، وتتحدث جريدة (الرامي الجزائري le tirailleur Algérien) التي تأسست 1858 بالجزائر العاصمة عن الشعر الجزائري في هذه الفترة (إن الكثير من القراء يعتقدون أن الجزائر لا تملك شعرا، ومنهم" المسيو برار" الذي سيندهش على حد قولها: بأن في هذا البلد من يقول شعرا، سيما الشعر الذي قيل غداة احتلال قسنطينة، فهو يضاهي النشيد الفرسي "لامارساييز" ومن الشعراء الذين أعجبت بهم الصحيفة، بن خمخام وهو أحد الوطنيين الذين تم نفيهم إلى فرنسا).

مثلت الأسواق العامة والمناسبات الاجتماعية، والمقاهي الشعبية المكان المناسب لهذا النشاط الثقافي، فقد كان المداح يستلهم من ماضي الثقافة الجزائرية قصصه وأساطيره لإثارة العواطف، ولم يكتف الأدب الشعبي بتسجيل الواقع الجزائري، و إنما تناول قضايا العالم الإسلامي، كحرب القرم 1854م، والاحتلال الفرسي لتونس ، ولتسجيل هذا الموروث الثقافي، قام محمد صوالح بجمع عدد من

ISSN 2170-0796

القصص الشعبية في كتاب بأسلوب عامي، منها "قصة مولى" الأمي التي تبرز صور من الواقع الاجتماعي الذي كان يسود الجزائر المحتلة من تخلف وانتشار الأمية والفاقة والعوز وانحياز الحاكم للأقوى، وتيف كان يطمح الشعب إلى العدالة والمساواة.

المراجع :

- نفس المرجع، ص 509.
- مُحَمَّد بن رمضان شاوش، و الغوثي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، الجزء3و4، ص 505.
- صالح خرفي،ا لشعر الجزائري الحديث، ص 170.
-، مقال بعنوان: مظاهر المقاومة الثقافية في الجزائر، د عبد المجيد مزيان. مجلة الأصالةع08، عام 1972.ص 162.
- الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، الجزء 2، ص 76.
- د أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء 2، ص 39.
- روزلين ليلى قريش، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1980، 178.